

الاستيطان الفينيقي في جزر البحر المتوسط وساحل شبه جزيرة أيبيريا

من خلال المصادر الأثرية والأدبية

إعداد د. محمد علي أبوشحمة

الأكاديمية الليبية للدراسات العليا / فرع مصراتة - ليبيا

m.abushahma@lam.edu.ly

الملخص

انتشرت المستوطنات الفينيقية في العديد من جزر البحر المتوسط، وتعد جزيرة قبرص من أولى جزره التي شهدت حضوراً فينيقياً مبكراً، وقد أشارت أسفار العهد القديم إلى وجود علاقة بين قبرص وساحل فينقيا، أكدت الدراسات اللغوية وجود جوانب من التأثير والتأثر مع قرطاجة أيضاً، وتحظى جزيرة مالطا بموقع استراتيجي مهم في وسط البحر المتوسط، وكانت بذلك إحدى الجزر التي عرفت استيطاناً فينيقياً على غرار باقي الجزر في أرجاء المتوسط كافة، وقد أشارت العديد من الكتابات الكلاسيكية إلى ذلك، وتؤكد أيضاً من خلال عدد من النقوش الكتابية. وأما صقلية فإن المصادر الكلاسيكية أشارت إلى أهمية موقعها الاستراتيجي، الأمر الذي ساعد في استقرار الفينيقيين على شواطئها كافة، وأكدت ذلك نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في مناطق مختلفة من غرب الجزيرة، وفي جزر البليار تشير الدلائل الأثرية إلى أن الجزيرة كانت من مراكز الصناعة الفينيقية في غرب المتوسط، وفي سردينيا، فإن تاريخ الوجود الفينيقي يرجع حسب بعض الروايات التاريخية إلى حوالي نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، وقد أثبتت الدراسات الأثرية التي أجريت في الجزيرة أن المستوطنات الفينيقية فيها قد تركزت في الركن الجنوبي، حيث كانت أهم مدنها نورا، وفي شبه جزيرة أيبيريا توفرت العديد من الثروات الطبيعية وبخاصة من المعادن حيث كانت من أهم الأسباب التي دفعت الفينيقيين لاجتياز أعمدة هيركليس والوصول إليها واستقروا في أماكن كثيرة منها.

استلمت الورقة بتاريخ 2024/03/04
وقبلت بتاريخ 2024/3/20
ونشرت بتاريخ 2024/03/25

الكلمات المفتاحية:
الاستيطان الفينيقي،
الاكتشافات الأثرية،
المصادر الكلاسيكية.

Abstract:

Phoenician settlements spread on many islands in the Mediterranean, and the island of Cyprus is one of the first islands in the Mediterranean that witnessed an early Phoenician presence. The books of the Old Testament indicated the existence of a relationship between Cyprus and the coast of Phoenicia, and linguistic studies also confirmed the existence of aspects of influence and influence with Carthage. Also the island of Malta has an important strategic location in the middle of the Mediterranean, and it is one of the islands that witnessed Phoenician settlement, like other islands throughout the Mediterranean. Many classical writings have referred to that settlement and it has been confirmed through a number of inscriptions. As for Sicily, the classical sources indicated the importance of the strategic location, and that this helped in settling the Phoenicians on all its shores, and the results of archaeological excavations. In the Balearic Islands, archaeological evidence indicates that the island was one of the centers of Phoenician industry in the western Mediterranean, and in Sardinia, the history of the Phoenician presence dates back, according to some historical accounts, to around the end of the second millennium BC. Archaeological studies conducted on the island have proven that Phoenician settlements there It was concentrated in the southern corner, where its most important city was Nora. In the Iberian Peninsula, many natural resources were available, especially minerals, which was one of the most important reasons that prompted the Phoenicians to pass the Pillars of Hercules and reach them, where they settled in many places.

المقدمة:

تعد الحضارة الفينيقية من أعرق الحضارات الإنسانية التي أسهمت في بناء التراث الإنساني، حيث كان لها دور رائد في نقل المؤثرات الحضارية بين شعوب العالم القديم، فقد فتح الفينيقيون آفاقًا جديدة لغيرهم من الشعوب في مختلف مناحي الحياة، فكانوا من أقدم الشعوب الذين ارتقوا بعلاقاتهم إلى المجال العالمي بفضل الانتشار الواسع لمستوطناتهم ومراكزهم الحضارية التي أقاموها في مناطق مختلفة من العالم القديم. عملوا بالتجارة فكانت من أهم الحوافز لتوسعهم في حوض البحر المتوسط، وشكلت المراكز التجارية والقواعد البحرية الفينيقية التي أقيمت على طول طرقهم التجارية شبكة من المستعمرات، تخدم عدة أهداف استراتيجية فكونها تعزز وصولهم للسكان المحليين بغرض التجارة، استغلّت أيضًا خطأ دفاعيًا أماميًا ضد هجمات الأعداء، فضمنت بذلك قدرًا من الأمن في حالة الضرورة، وتشهد العديد من الأدلة الأثرية والأدبية على كثافة الاستيطان الفينيقي في تلك المناطق، ومدى نجاح التجار الفينيقيين في إرساء قواعد تواجدهم الأمر الذي انعكس بشكل إيجابي على توطيد العلاقات مع السكان المحليين (اللوحتان رقم 1، 2).

ومن هنا جاءت أهمية الدراسة كونها تبحث في جانب مهم من جوانب الحضارة الفينيقية ألا وهو انتشار الفينيقيين واستقرارهم على جزر البحر المتوسط منذ تاريخهم المبكر، وعملوا على ربط حوض البحر المتوسط شرقه بغربه بعدد من الطرق البحرية استطاعوا من خلالها أن ينشروا حضارتهم وحضارات غيرهم من الشعوب التي احتكوا بها في تلك المناطق، وتكتسب الدراسة أهميتها باعتبارها تدرس تاريخ المستوطنات الفينيقية التي شكلت همزة وصل بين شرق البحر المتوسط وغربه، بل كانت تمثل الحضور الفينيقي في المنطقة، وأخيرًا فإن الاعتماد على ما ورد في المصادر سواء في شقها الأثري أو الأدبي أعطاهما أهمية خاصة فتعرض نتائج الحفريات والدراسات الأثرية حول الموضوع، كذلك تناقش ما ورد في كتابات المؤرخين والجغرافيين وغيرهم من المصادر الأدبية وتحللها.

وتسعى الدراسة لتحقيق عدة أهداف منها: التعرف على أهم مراكز الاستيطان الفينيقي على جزر البحر المتوسط التي شكلت همزة وصل بين شرقه وغربه، وفي ساحل شبه جزيرة أيبيريا، من خلال المصادر الأثرية والأدبية، كما تهدف إلى معرفة الاستراتيجية التي اتبعتها الفينيقيون عند تأسيسهم لمستوطناتهم والغاية من وراء ذلك.

ومن هذه الأهداف تنبثق إشكالية الدراسة المتمثلة في ما هي المستوطنات الفينيقية التي أسسها الفينيقيون في جزر البحر المتوسط وفي ساحل شبه جزيرة أيبيريا؟ وما مدى مساهمة الأدلة المستقاة من المصادر الأثرية والأدبية في التعرف على تلك المستوطنات؟ وتتفرع من هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات منها: ما أهم الأدلة الأثرية التي تؤكد الاستيطان الفينيقي في جزر البحر المتوسط؟ وهل هناك توافق بين الشواهد الأثرية والأدلة الأدبية حول ذلك؟ وما هي أهمية المعلومات التي توفرها؟ وما أهمية الموقع الجغرافي لمراكز الاستيطان الفينيقي في حوض البحر المتوسط؟ وما هو الغرض من انشائها؟ ومدى مساهمة المعرفة الفينيقية على ارتياد البحر منذ فترات مبكرة من تاريخهم؟ وهل شكلت تلك المناطق أهمية خاصة للفينيقيين؟ هل ساعد الطابع التجاري الفينيقي على انتشار المستوطنات الفينيقية في حوض المتوسط؟ ما هي مظاهر التأثير والتأثر بين الطرفين؟ هل كان لقرطاجة دور في تأسيس بعض المستوطنات الفينيقية؟ ومتى كان ذلك؟

ولمعالجة جوانب الموضوع فقد اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي والوصفي المبني على تحليل المعلومات والبيانات وشرحها من أجل الإحاطة بحيثيات الموضوع، كما استخدم المنهج المقارن كلما اقتضت الضرورة العلمية ذلك.

أما عن الإطار الجغرافي لموضوع الدراسة فهو يشمل الحدود الجغرافية لجزر حوض البحر المتوسط، وساحل شبه جزيرة أيبيريا، وأما مجالها الزمني فهو يمثل فترة زمنية تمتد من نهاية الألف الثانية قبل الميلاد إلى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد.

ومن أجل استيفاء الموضوع حقه من البحث تم تقسيم الدراسة إلى جانبين هما على النحو التالي:

الجانب الأول /

المستوطنات الفينيقية في جزر (قبرص - مالطا - صقلية):

1- الاستيطان الفينيقي في جزيرة قبرص⁽¹⁾:

تعد جزيرة قبرص من أولى جزر البحر المتوسط التي شهدت حضورًا فينيقيًا مبكرًا، فهي أقرب جزر الحوض الشرقي من البحر المتوسط إلى الساحل الفينيقي، إذ لا تتعدى المسافة بينهما 100 كيلو متر تقريبًا، إلى جانب تمتعها بموقع فريد جعلها قريبة من قارات العالم القديم الثلاث أوروبا وآسيا ثم إفريقيا، ومن المرجح أن لها علاقات مع أوغاريت منذ فترات تاريخية مبكرة من تاريخها، فقد أكدت الدراسات الأثرية وجود علاقات تجارية بين الطرفين، حيث عُثر على أواني ومقتنيات فخارية قبرصية الصنع في أوغاريت يعود تاريخها إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد (الخطيب، 2007، ص 10)، تؤكد هذه الأدلة المادية وجود حركة تجارية نشأت بين قبرص والساحل الفينيقي، ومن المعروف أن هذه الفترة التاريخية شهدت هجرات بشرية من بحر إيجه إلى جزيرة قبرص، وإلى شمال وجنوب الساحل الفينيقي، ما ساعد على امتزاج العديد من المظاهر الحضارية بينها.

احتلت الجزيرة مكانة خاصة بحكم قربها من الساحل الفينيقي، كما أنها عُرفت منذ الألف الثانية قبل الميلاد بثرواتها المعدنية، التي من أهمها النحاس، وكانت مناجم ثاماسوس (Thamassos) أغناها بهذا المعدن، ويبدو أن الفينيقيين كانوا أول من قام باستغلال تلك الثروات، وعملوا على تصديره إلى مصر القديمة، وإلى بلاد ما بين النهرين في شكل سبائك (عبودي، 1991، ص 674 - 676)، ومن الجدير بالذكر أن لفظ (Cyprium) - الذي يعني النحاس - شاع في العديد من اللغات قد اشتق منه اسم الجزيرة (الدبس، 1984، ص 25)، وأكدت الدراسات الأثرية في العديد من مناطق الجزيرة وبشكل خاص في لابيثوس (Lapithos)، وكيثيون (Kition)، وإيداليون (Idalion) أن الفينيقيين قاموا باستغلال الثروة المعدنية المتوفرة فيها (دوكريه، 1994، ص 29)، إضافة إلى وفرة ثروتها النباتية المتمثلة في أشجار الزيتون والكروم، وأشجار الأخشاب، وبأراضيها الصالحة لزراعة الحبوب (كونتنو، 1997، ص 105).

ولأهمية مركزها الحساس اتجه الفينيقيون نحوها، فأسس تجار صور وصيدون مراكز تجارية على ساحلها الجنوبي (الصغير، 2003، ص 61) مثل: كيتيون، وأماتوس (Amathus)، وثاماسوس، وإيداليون، ولابيثوس، وبمرور الزمن آلت تلك المراكز وتطورت إلى دويلات مدن صغيرة (مازيل، 1998، ص 81).

انتشرت المستوطنات الفينيقية في مواقع مختلفة من الجزيرة، وتبين من الدراسات الأثرية أنه من الصعب تحديد أقدمية هذا التواجد وطبيعته (كونتنو، 1997، ص 105)، فبعضها كانت محطات تجارية، وبعضها كانت مأوى أو مواقع تحصينات ذات صبغة عسكرية، غير أن ما يجمع بين هذه المواقع هو حضور ونشاط الفينيقيين التجاري والحرفي فيها (اللوحة رقم 3).

ولعل ما يؤيد قدم التواجد الفينيقي بالجزيرة هو ما أورده المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفيوس (Flavius Josephus) من أن الملك أحيرام ملك مدينة صور كان قد قضى على حركة عصيان خلال القرن العاشر ق.م، في إحدى المستوطنات التابعة لمدينته بجزيرة قبرص (Josephe, Contre Apion, I, 119 ; Antiquité juives, VIII, 146)، ويُرجح أن تلك المستوطنة كانت هي كيتيون.

إن أماكن الإقامة الفينيقية الدائمة التي كشفت عنها الحفريات الأثرية في الجزيرة تؤكد أنها لم تكن مجرد محطة لاستراحة الملاحين بل كانت نقطة ارتكاز انتقل منها الفينيقيون إلى بلاد الإغريق، وإلى الحوض الغربي للبحر المتوسط (شوقي، 1992، ص 31)، فقد استفادوا من موقعها القريب من الساحل الفينيقي في مجال الملاحة، كما كانت مستودعًا توزع منه سلعهم التجارية إلى مناطق أخرى. وقد أشار بلينيوس أن الفينيقيين عند وصولهم إلى جزيرة قبرص وسعوا تجارتهم نحو الغرب حيث استفادوا من الموقع الاستراتيجي للجزيرة في وسط البحر، مع توفر موانئ طبيعية جيدة لرسو السفن ومناسبة للملاحة (Plinius, XVII, 79).

ويبدو أن الجزيرة شهدت امتزاجًا حضاريًا واضحًا بين سكانها الأصليين والمستوطنين الفينيقيين فقد كشفت إحدى البعثات الأثرية بالجزيرة عن أوروبول يعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر ق.م، يُعتقد أنه بني من قبل المستوطنين الفينيقيين الأوائل بالتعاون مع السكان المحليين، ومن جانب آخر فإن النقوش الفينيقية التي عُثر عليها بالجزيرة تؤرخ بالقرنين التاسع والثامن قبل الميلاد (عصفور، 1981، ص 57، 59).

¹ جزيرة قبرص من أشهر الجزر التي وردت في الميثولوجيا اليونانية فهي شهدت الولادة الأسطورية لربة الحب والجمال أفروديتي، للمزيد ينظر: (السيد، د - ت، ص 50).

كما يلاحظ وجود جوانب من التأثير والتأثر بين الطرفين في الصناعات الفخارية مثل: صناعة المزهريات والجرار ذات الأعناق الواسعة (مازيل، 1998، ص 84)، ويستمر التأثير الحضاري بين الطرفين حتى بعد تولى مدينة قرطاجة زعامة المستوطنات الفينيقية في غرب المتوسط حيث تم اكتشاف إناء فخاري (أورن) يحتوى على بقايا رفات طفل محروقة ما يشير إلى ممارسة شعائر الحرق، تلك الشعائر الجنائزية التي كانت معروفة سواء عند الفينيقيين في الوطن الأم، أو في قرطاجة أيضاً (الفرجاوي، 1993، ص 131)، وقد وجد من الأدلة ما يؤكد أصله القرطاجي، فقد كتب عليها اسم الإله بعل حامون⁽¹⁾ - الإله القرطاجي المعروف - ويلاحظ أن حرف العين قد سقط من الاسم الذي يميز الكتابة البونوية.

ويبدو أن مدينة بيبيلوس (جبيل) من أوائل المدن التي أقامت معبداً في منطقة بافوس (Paphos) الواقعة غربي الجزيرة (الدبس، 1984، ص 237)، كما أقيم معبد للربة عشتارت في مستوطنة كيتيون التي تعد من أقدم المواقع التي استقر بها الفينيقيون في الجزيرة، فقد ذكرت في أسفار العهد القديم باسم كيتيم (الكتاب المقدس، 2011، سفر حزقيال، 27، 6). وتبين من دراسة البقايا الأثرية بأن هذه المعابد أقيمت على طراز المعابد المقامة في مدن الساحل الفينيقي (Marguerite, 1991, pp. 34 - 37).

2- الاستيطان الفينيقي في جزيرة مالطا:

تحظى جزيرة مالطا بموقع استراتيجي مهم في وسط البحر المتوسط، وهي إحدى الجزر التي عرفت استيطاناً فينيقياً على غرار باقي الجزر في كافة أرجاء المتوسط، تتكون من ثلاث جزر مأهولة بالسكان هي: مالطا، غوزو، وكومينو، وجزر أخرى غير مسكونة هي: كومينوتو، وفلفة وجزيرة القديس بولس (مهران، 1994، ص 276-277)، هذه الجزر أستغلت لتكون جسراً للتواصل الجغرافي يربط قارتي أوروبا وأفريقيا، فهي تقع في عرض البحر وتربط بين شرق المتوسط وغربه، وهذا ما أكده المؤرخ ديودورس الصقلي الذي أشار إلى استعمار الفينيقيين للجزيرة الواقعة في عرض البحر أثناء رحلاتهم التجارية باتجاه المحيط الغربي، باعتبارها ملجأ جيداً وسط البحر، تتوفر فيه موانئ جيدة (Diodorus, V, 12)، ولعل مما يجدر ذكره أن مالطا ذكرت في كتابات ديودورس الصقلي تحت اسم ميليتي (Diodorus, V, 2-4) (Melite)، وهو ما دفع أحد الباحثين للاعتقاد أن اسمها سامي (ملط) بمعنى (هرب) (غانم، 1979، ص 90).

يعود تاريخ الاستيطان الفينيقي في جزيرة مالطا إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، وتركز بشكل خاص في مناطق غوزو، وبانتيلاريا، ولامبيدوزا (عصفور، 1981، ص 57)، التي كانت تمثل محطات للتجار الفينيقيين المتجهين نحو الغرب (اللوحة رقم 4)، يتضح ذلك من الشواهد الأثرية الناتجة عن أعمال الحفر والتنقيب الأثري التي أجريت في الجزيرة، والمتمثلة في قطع الأثاث الجنائزي المكتشفة في عدد من المقابر الفينيقية، والتي يُرجح أن تاريخها يعود إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، كما عُثر بها على مقبرة فينيقية ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد (غانم، 1979، ص 90) (اللوحة رقم 5).

كما أوضحت مجموعة النقوش المكتشفة بالجزيرة انتشار اللغة الفينيقية بين سكانها منذ القرن الثامن قبل الميلاد، الأمر الذي ربما جعل المؤرخ ديودورس الصقلي يعتقد أن سكانها الأوائل كانوا من أصل فينيقي (Diodorus, V, 2)، وفي ضوء البقايا الأثرية أيضاً تبين أن عبادة الإلهة تانيت (Tanit) كانت معروفة في جزيرة مالطا (الهدال، 2016، ص 148 - 149)، الأمر الذي يشير إلى مدى تغلغل الثقافة الفينيقية وانتشارها بين سكان الجزيرة.

3- الاستيطان الفينيقي في جزيرة صقلية:

تعد جزيرة صقلية من بين أقدم المناطق التي عرفت استقراراً وحضوراً متميزاً لشعوب الشرق، حيث جذبت انتباه التجار من الفينيقيين والإغريق، والذين استقروا على كامل سواحلها الشرقية والغربية والجنوبية (غانم، 1979، ص 88؛ حتى، 1957، ص 110) (الخريطة رقم 6).

وتشير أقدم الأدلة الأثرية المتمثلة في أوانٍ فخارية وجدت بإحدى المقابر الأثرية بموقع موتيا غرب الجزيرة إلى أن بداية الحضور الفينيقي فيها لا يتجاوز القرن الثامن قبل الميلاد (بوروبنة؛ الطاهر، 1999، ص 73؛ مازيل، 1998، ص 171 - 172)، حيث أقام الأسطول الفينيقي قواعد ضخمة، وأنشأت مراكز فينيقية في القطاع الغربي من الجزيرة، من أهمها ثلاثة هي: بانورموس (Panormus) التي تعود أهميتها لعاملين الأول تحكمها في أحد الخلجان المهمة، والثاني خصوبة الأراضي الزراعية المحيطة بها، ومدينة سولكيس (Sulcis) التي تشير المعطيات الأثرية أنها تأسست في القرن السادس ق.م، وكان الغرض الأساسي من تأسيسها الوقوف في وجه التوسع الإغريقي نحو الغرب (غانم، 1979، ص 90؛ مهران، 1994، ص 276)، وأما موتيا

(1) بعل حامون: يتركب اسم بعل حامون من مقطعين بعل ويعني السيد؛ وحمون، أو حامون يعني جبل الامانوس وبذلك يسمى هذا الإله سيد جبل الامانوس. حول مزيد من المعلومات ينظر: (الفرجاوي، 1993، ص 169؛ أبو شحمة، 2015، ص 494).

(Motya) فتمثل موقعًا نموذجيًا للمرافئ الفينيقية فهي جزيرة صغيرة يحميها حاجز صخري طويل تتكسر عليه الأمواج، وتُشير نتائج الحفريات الأثرية من البقايا الفخارية المكتشفة بإحدى مقابر المدينة أن تاريخها يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد (دوكريه، 1994، ص 29).

لقد شكلت المستوطنات الفينيقية بالجزيرة مراكز مهمة اعتمدت عليها امبراطورية قرطاجة في فرض سيطرتها ومواجهة أعدائها في الخارج، ولعبت هذه المستوطنات دورًا كبيرًا في الصراع مع القوى المنافسة لها، حيث كانت صقلية المسرح الرئيسي لأحداث الصراع بين قرطاجة والإغريق، فقدمت العون لقرطاجة، وتلقت الضربات العسكرية الإغريقية، ودافعت عنها أمام الغزو الروماني فيما بعد عقب الحرب البونية الأولى خلال القرن الثالث قبل الميلاد⁽¹⁾.

وقد أكد المؤرخ الإغريقي ثوكيديدس (Thucydides, VI,2,6) أهمية الموقع الاستراتيجي للجزيرة في استقرار الفينيقيين على شواطئها كافة، بل احتلوا الجزر الصغيرة الواقعة قرب الشاطئ، ومن جهة أخرى تتوفر في الجزيرة إمكانات التعامل التجاري مع سكانها، ولكن مع ازدياد تدفق هجرات الإغريق إلى الجزيرة واستقرارهم في الجانب الشرقي منها، الأمر الذي اضطر الفينيقيين إلى مغادرة أغلب مواقعهم في ذلك الجانب، وتجمعوا في الجانب الغربي، في كل من موتيا وسولكيس وبانورموس الواقعة قرب مناطق الاليميين⁽²⁾، الذين تحالفوا معهم (Thucydides, T.II, VI,2. 6)، وربما يكون من أسباب التوجه نحو الاستقرار في الجانب الغربي هو قصر المسافة بين صقلية وقرطاجة (اكصيل، 2007، ج 1، ص 322).

وتؤكد نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في مناطق مختلفة من غرب الجزيرة وبشكل خاص في موتيا (Motya) تركيز الاستيطان الفينيقي في هذه المنطقة حيث تم الكشف عن أوان فخارية فينيقية تُؤرخ بالقرن الثامن قبل الميلاد (عولمي، 2022، ص 11)، ما يشير إلى قِدَم الاستيطان الفينيقي فيها وقوته، بالإضافة إلى بنتلاريا (Pantelleria) التي كان القرطاجيون يسمونها إيرانيم (Iranim)، وفيها تم العثور على فضاء مقدس، يبدو من تخطيطه المعماري أنه كان مخصصًا لتلقي العلاج والشفاء للمرضى (فنطر، 1998، ص 100).

لقد أثبتت الشواهد الأثرية أهمية صقلية للطرفين الفينيقي والإغريقي، فمعظم البقايا الأثرية في الجانب الشرقي ذات طابع إغريقي، أما الجانب الغربي فشهد حضورًا قويًا للبقايا الأثرية ذات الطابع الفينيقي (بورونية؛ الطاهر، 1999، ص 74)، ومما لا شك فيه أن لهذا الجوار تأثيرات حضارية متبادلة بين الطرفين.

ويعتقد بعض المؤرخين أن التواجد الفينيقي في غرب صقلية كان استراتيجيًا بالدرجة الأولى لأنه يعزز التواجد الفينيقي في مدينتي أوتيكيا وقرطاجة بشمال أفريقيا، إضافة إلى سيطرتهم على المضيق الذي يربط بين حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي (اكصيل، 2007، ج 1، ص 322)، إن السيطرة على الجزيرة مثل ضرورة استراتيجية لاستمرار التجارة بين شرق وغرب المتوسط، كما كانت تمثل سوقًا مشتركة يلتقي فيها التجار الإغريق والفينيقيون والأتروسك والرومان حتى أصبحت فيما بعد مركزًا تجاريًا مهمًا وسوقًا رائجة لتصريف مختلف البضائع.

حقق سكان المدن الفينيقية في صقلية تقدمًا حضاريًا بفضل احتكاكهم بالإغريق والأتروسكيين، ولعل من أهم ملامح ذلك هو قيام تلك المدن بسك العملة منذ القرن السادس قبل الميلاد، في حين بقيت مدينة قرطاجة تتبع أسلوب المقايضة في تعاملها التجاري حتى القرن الثالث قبل الميلاد (غانم، 1979، ص 90).

وبشأن الحضور الفينيقي بصقلية، يرى أحد الباحثين ضعف الأدلة الأثرية المتعلقة ببداية الحضور الفينيقي، وهو ما دفع البعض الآخر إلى توجيه نقد شديد لشهادات الكتاب الكلاسيكيين إلى درجة أُعتبرت في بعض الأحيان أنها شهادات غير موثوق في صحتها (بورونية؛ الطاهر، 1999، ص 75).

ومهما يكن من تضارب لأراء الباحثين حول التواجد الفينيقي في جزيرة صقلية والصراع الإغريقي الفينيقي حولها، فإن الجزيرة كانت تمثل جسرًا مهمًا للتجارة الفينيقية في حوض البحر المتوسط، وأنها من أقدم مراكز الاستيطان الفينيقي فيه.

(1) للمزيد حول موضوع الصراع القرطاجي الإغريقي ينظر: (البركي، 2016، ص ص 49-97).

(2) الاليميين: يُفهم من إشارة المؤرخ الإغريقي ثوكيديدس أنهم يمثلون إحدى المجموعات السكانية المحلية في الجزيرة.

الجانب الثاني /

المستوطنات - الفينيقية البونية في جزر البليار وسردينيا وشبه جزيرة أيبيريا:

1 - الاستيطان الفينيقي بجزر البليار:

استوطن الفينيقيون في جزر البليار⁽¹⁾ على غرار باقي مناطق وجزر حوض البحر المتوسط، خلال رحلاتهم الباكورة، لذا كان استيطانهم بجزيرة إيبيزا (Ibiza) حوالي سنة 654 قبل الميلاد أي بعد حوالي مائة وستين سنة من تأسيس مدينة قرطاجة (Warmington, 1960, p.33).

لذا لعبت قرطاجة دورًا مهمًا في الاستيطان بهذه الجزر خاصة في إيبيزا، بعد أن آلت إليها زعامة المستوطنات الفينيقية في غرب المتوسط، ويُعتقد أن تأسيس إيبيزا كان ذو طابع عسكري بالدرجة الأولى، إذ كانت تمثل قاعدة بحرية مهمة للأسطول الفينيقي الذي كان ينطلق منها متجهًا نحو شواطئ المغرب جنوبًا وأيبيريا غربًا (غانم، 1979، ص 86).

ولأهمية الموقع الجغرافي لإيبيزا الذي يربط بين المستوطنات الفينيقية في شبه جزيرة أيبيريا وجزيرة سردينيا، عمل الفينيقيون على تأسيس مراكز تجارية وأخرى حربية فيها (الكصيل، 2007، ج 1، ص 333)، وذلك للدفاع عن مصالحها الاقتصادية وبشكل خاص بعد زيادة التوسع الإغريقي في جنوب صقلية.

ومن المكتشفات الأثرية المهمة في جزيرة إيبيزا مجموعة أحواض يحتمل أنها كانت مخصصة لصناعة السمك المجفف (الجاروم)، وبعضها الآخر مخصصة لصناعة الصبغة الأرجوانية، ما يشير إلى أن الجزيرة كانت من مراكز الصناعة الفينيقية في غرب المتوسط، وبالقرب منها عُثر على معبد للإلهة تانيت يؤرخ بالقرن الثالث قبل الميلاد (غانم، 1979، ص 86)، كما عُثر على عدد من التماثيل النصفية يُعتقد المختصون أنها تمثل الربية تانيت (عصفور، 1981، ص 174)، الأمر الذي يشير إلى أهمية هذه الربية، ويؤكد انتشار المعتقدات الدينية القرطاجية بين سكان المراكز والمستوطنات الفينيقية في غرب المتوسط.

2- الاستيطان الفينيقي في جزيرة سردينيا:

تكتسي جزيرة سردينيا أهمية خاصة في منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط بفضل موقعها الجغرافي المميز؛ فهي تحتل موقعًا متوسطًا، بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب (البركي، 2008، ص 90)، وتشكل بذلك همزة وصل بين العديد من جهات المتوسط، لذا أصبح لزامًا على السفن المتجهة من الشرق نحو الغرب المرور بسواحل تلك الجزيرة، خاصة الجنوبية والجنوبية الغربية منها، فضلًا على أن الساحل الغربي للجزيرة يمثل نقطة انطلاق جيدة نحو جزر البليار وسواحل جنوب شبه جزيرة أيبيريا الشرقية.

إضافة إلى موقعها الجغرافي، فقد كانت تحيط بها جزر صغيرة قريبة من سواحلها تميزت شواطئها بوجود بعض النتوءات الجبلية الداخلة في البحر والملائمة لإقامة المحطات التجارية المؤقتة (مهران، 1994، ص 178)، كما أن سواحلها ذات خلجان مناسبة لرسو السفن، فضلًا عن غناها بالموارد الطبيعية والأراضي الزراعية الخصبة، مما جعلها أثناء المراحل العنصرية التي مرت بها قرطاجة قادرة على تزويدها باحتياجاتها الغذائية.

أما عن تاريخ الوجود الفينيقي في سردينيا، فيرجع ذلك حسب بعض الروايات التاريخية إلى حوالي نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، حينما أرغمت زوابع بحرية التجار الفينيقيين على النزول عند شواطئ سردينيا الجنوبية الغربية، غير أن الأدلة الأثرية لا تؤيد هذا التاريخ، ولكن المؤكد أن الفينيقيين كانوا قد ربطوا علاقاتهم التجارية مع سكان إيطاليا منذ القرن الثامن قبل الميلاد (منصوري، 2002، ص 164)، وفي الاتجاه نفسه يؤكد أحد الباحثين أن الاتصال الفينيقي المبكر بسردينيا كان على هيئة بعثات تجارية تحمل البضائع من بلادها الأصلية، وتقوم بمبادلتها بمنتجات الجزيرة المعدنية (Lancel, 1992, p.23).

إن الاختلاف بين الباحثين حول مسألة تاريخ دخول الفينيقيين إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط بشكل عام، مرده إلى الاختلاف بين ما ورد في المصادر الأدبية وبين ما أكدته المصادر الأثرية، فبعض الباحثين يرون أن تاريخ ذلك الدخول يعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، استنادًا لما ورد في المصادر الأدبية، بينما باحثون آخرون يعتمدون على المصادر الأثرية التي تعود أقدمها إلى القرن الثامن قبل الميلاد (ديوكريه، 1996، ص 41)، وفي هذا الجانب من الصعوبة بمكان إيلاء ما ورد في المصادر

(1) جزر البليار: هي مجموعة جزر (أرخبيل) تتبع اسبانيا في غرب البحر المتوسط تقع قرب الساحل الشرقي لشبه الجزيرة الأيبيرية. للمزيد من المعلومات ينظر: (https://www.archinform.net/ort/3894.htm).

الأدبية أهمية خاصة لأنها وثقت لأحداث تاريخية سابقة ولم تكن معاصرة لها، واعتمادها في أغلب الأحوال على الرواية الشفوية أو النقل من مصادر أخرى، وجميعها يشوبه الخطأ والتقصير، ومع هذا لا يمكن الاستغناء عنها بما تشتمل عليه من أخبار وروايات، بل هي المدخل الرئيسي للتعرف على تاريخ الوجود الفينيقي في البحر المتوسط، وأما المصادر الأثرية فما تم الوصول إليه من أدلة هو ما تم العثور عليه فقط، وهناك احتمال كبير جداً بوجود أدلة أخرى قد تكون أقدم مما عُثر عليه، وقد تكشف الحفريات والدراسات الأثرية مستقبلاً عن ذلك وتغير كثيراً من المعطيات والأدلة حول تاريخ الاستيطان الفينيقي في حوض البحر المتوسط الغربي.

وقد أثبتت الدراسات الأثرية التي أجريت في سردينيا أن المستوطنات الفينيقية في هذه الجزيرة قد تركزت في ركنها الجنوبي، حيث كانت أهم مدنها نورا (Nora) التي شهدت حضوراً فينيقياً كبيراً، وتميزت بمينائها، ومن أهم ما اكتشف بها من آثار نقش فينيقي عُرف بنقش نورا (غانم، 1979، ص 87)، حيث عُثر على نصب أثري في أنقاض المدينة يحمل كتابة فينيقية، نفذ نص النقش على قطعة حجرية ارتفاعها 120 سم تقريباً، يحتوي على 44 حرفاً موزعة على ثمانية أسطر، ومع اختلاف الآراء حول معناه، ولكن هناك شبه إجماع على أن النقش يخلد ذكرى قيام الفينيقيين ببناء معلم ربما يكون معبداً، وتم تحديد تاريخه عن طريق دراسة أشكال حروف الكتابة، وذلك بمقارنته مع نقش آخر عُثر عليه بمدينة كيلاموا (Kilamua) يعود تاريخه إلى سنة 825 ق.م، وتبين من خلال الدراسات المقارنة أن نقش نورا يؤرخ بنهاية القرن التاسع وبداية القرن الثامن قبل الميلاد (الصفدي، 1967، ص 153؛ بورونية؛ الطاهر، 1999، ص 72 - 73)، وبالتالي فهو معاصر تقريباً لتاريخ تأسيس مدينة قرطاج.

كما أسس الفينيقيون العديد من المدن بسردينيا منها سولكيس (Sulcis) التي تزخر بالعديد من المواقع الأثرية الفينيقية، حيث تم حصر حوالي ستة وثلاثين موقعاً على الساحل وسبعة وعشرين موقعاً بالداخل، وأفرزت الحفريات الأثرية التي أجريت فيها كميات كبيرة من الفخار يؤرخ بالقرن الثامن قبل الميلاد، كما قدمت تلك الحفريات إشارات أثرية ترجح وجود معبد للربة تانيت (مهران، 1994، ص 277)، ما يشير إلى أهمية هذه الربة ومكانتها المقدسة بين المستوطنين الفينيقيين، وسعة انتشار عبادتها.

ومن جانب آخر قام الفينيقيون بتشييد العديد من المنشآت المحصنة في مستوطنة سولكيس على هيئة حزام دفاعي لتأمين ظهرها الغني بمعدني الرصاص والفضة، ويعد حصن مونتي سيراي من أهم المباني ذات الطبيعة العسكرية بالمستوطنة (العزيفي، 2009، ص 268).

ومن المستوطنات الفينيقية المهمة في الجزيرة أيضاً مستوطنة كاراليس (Caralis) التي كانت تمثل مستودعاً لسلعهم التجارية في البحر المتوسط (الهذال، 2016، ص 152)، كما وجدت بها مقابر فينيقية تؤرخ بالقرن الخامس قبل الميلاد، ومن جهة أخرى كشفت الحفريات الأثرية على العديد من المعالم الأثرية الفينيقية بمدينة ثاروس، الأمر الذي يؤكد أن الوجود الفينيقي بسردينيا كان مبكراً (غانم، 1979، ص 87، اكصيل، 2007، ج 1، ص 324)، ولعل هذا ساعد على توطيد العلاقات بين الفينيقيين وشعوب تلك المنطقة منذ مراحل تاريخية مبكرة.

اشتهرت المستوطنات الفينيقية في سردينيا بصناعة المجوهرات، وقد عُثر على العديد منها في مقابر المستوطنات مثل: سلسيس، ونورا، وكرايس، تميزت بدقة الصناعة وحرفيتها، ولعل من أهم النماذج المكتشفة هي: أقراط، وخواتم، وأساور، وأختام ومحافظ تظهر في شكل أسطوانات، يعلو بعضها رؤوس تماثيل حيوانية مثل: الخرفان والسباع (فنطر، 1999، ص 227 - 228)، وتبين بعد دراستها أنها تحمل الطابع الفينيقي، إضافة على الطرز المعمارية الفينيقية التي تتضح من خلال أطلال المعابد الأثرية، وتصميم المقابر وتخطيطها وأشكالها الهندسية التي كشفت عنها أعمال الحفر والتنقيب الأثري في مناطق مختلفة من الجزيرة.

وعلى العموم فإن الحضور الفينيقي البوني بسردينيا كان مثل غيره قوياً في مناطق وجزر البحر المتوسط التي كانت تشكل إما محطات رئيسية، أو محطات عبور مهمة، نتج عنها تأثيرٌ فينيقيٌ كبيرٌ، سواء في الجانبين الاقتصادي والاجتماعي إضافة للجانب الثقافي.

3- الاستيطان الفينيقي في شبه جزيرة أيبيريا:

اهتم الفينيقيون بالتجارة والتوسع التجاري في كافة أرجاء البحر المتوسط، (خريطة رقم 2) بل امتد نشاطهم حتى وصل إلى ما وراء أعمدة هيركليس (مضيق جبل طارق حالياً)، حيث كانوا يبحرون بحثاً عن المعادن المتوافرة مثل: الذهب والفضة والقصدير في مناطق عدة، صاحب ذلك إقامة علاقات طيبة ومثمرة مع سكان المناطق التي وصلوا إليها (Diodorus, V, 20).

وجاء في أحد المصادر الإغريقية أن الفينيقيين وصلوا منذ فترات مبكرة عن طريق البحر إلى تارتسوس (Tartessos)⁽¹⁾، وكانوا يستبدلون الزيت والبضائع الأخرى التي جلبوها معهم بمعدن الفضة، الذي يبدو أنه كان متوفراً بكمية كبيرة لدرجة أنهم صنعوا منها جميع الأدوات التي تستعمل عادة على السفن حتى المراسي (مازيل، 1998، ص 119؛ موسكاتي، 1988، ص 172).

ومن هنا يتبين أن توفر العديد من الثروات خاصة المعدنية منها في شبه جزيرة أيبيريا كانت من أهم الأسباب التي دفعت الفينيقيين لاجتياز أعمدة هيركليس والوصول إليها، حيث استقروا في أماكن كثيرة، فقد أشار استرابون (Strabo, III, 5,5) نقلاً عن بوسيدونيوس أن الإله (ملقارت) إله الصوريين أمرهم بتأسيس محطة تجارية عند أعمدة هيركليس، فانطلقت حملة حتى عبرت المضيق وقاموا بتأسيس محطة لهم في منطقة سيكسي، وقدمت القرابين للإله ملقارت ثم عادوا إلى صور، وتلت هذه الرحلة رحلتين أخريين تم على إثر الأخيرة تأسيس مستوطنة لهم في قادس.

وتبين من الحفريات الأثرية أن الاستيطان الفينيقي تركز بشكل خاص في المنطقة الساحلية الممتدة من الميرية ومالقا، حيث أسسوا العديد من المستوطنات والمدن كانت لها أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية، تأتي في مقدمتها (Malaga) مالقا ويعنى اسمها المعمل الصغير، وفي هذا الجانب يذكر استرابون أن بها معملًا لتجفيف الأسماك وتمليحها (الخطيب، 2007، ص 75؛ مهرا، 1994، ص 176)، وسيكسي (Sexi)، وأبديرا (Abdera)، ثم قرطاجة التي بُنيت في فترة متأخرة نسبيًا حيث أسسها القائد القرطاجي صدر بعل عام 227 ق.م، وأثبتت الاكتشافات الأثرية أن هذه المنطقة شكلت واحدة من أكثر التجمعات الفينيقية كثافةً في الحوض الغربي للبحر المتوسط (العزيقي، 2009، ص 272؛ غانم، 1979، ص 85) (اللوحة رقم 7).

وحسب الأبحاث الأثرية يعود تاريخ الاستيطان الفينيقي فيها إلى الفترة ما بين 760 - 725 قبل الميلاد، وقد عُرفت بنشاطها الصناعي والتجاري فكانت من أهم المناطق التي وصلت إليها منتوجات الشرق الأدنى بدليل العثور على العديد من البقايا الأثرية لصناعة مصرية (تسيركين، 1988، ص 98).

عمل الفينيقيون على تأسيس العديد من المستوطنات في شبه جزيرة أيبيريا، وتبقى مستوطنة قادس أقدم المستوطنات وأهمها، وقد تضاربت آراء الباحثين حول تاريخ تأسيسها، غير أن أحد الباحثين يحدد تاريخ بناء قادس بشكل دقيق في حوالي عام 1110 قبل الميلاد (دوكريه، 1994، ص 36)، بناءً على ما أورده المؤرخ فيليوس باتركولوس ((Veleius Paterculus) الذي يعيد تأسيس كل من مدينتي قادس وأوتيكا إلى زمن عودة الهرقليين⁽²⁾ (Heaclides) إلى البيلوبونيز والذي يؤرخ بحوالي ثمانون سنة بعد تهديم مدينة طروادة (Velleius, Historiae Romanae, 1,2,4,II, XLI).

ومنهم من يحدد القرن الثاني عشر قبل الميلاد هو تاريخ تأسيس الفينيقيين قاعدة لهم على ساحل أيبيريا الغربي، هي التي عُرفت باسم قادس (مازيل، 1998، ص 119)، وذلك بناءً على إشارة وردت عند ديودوروس حول تأسيس قادس فبعد أن نجح الفينيقيون في جمع ثروات طائلة من مشاريعهم التجارية في البحر المتوسط، عملوا على التوجه نحو بحر أوقيانوس⁽³⁾ الذي يمتد بعد أعمدة هيركليس، وقاموا بتأسيس مدينة قرب ممر العمودين وأطلقوا عليها اسم قادس (Diodorus, V, 20).

غير أن الدراسات الأثرية تسمح باستقراء بعض ملامح الحضور الفينيقي في قادس على الأقل بداية من القرن الثامن قبل الميلاد (Diogo, 1988, p. 82-83)، وعموماً يتفق أغلب الباحثين على أن قادس من أقدم المستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي للمتوسط إلى جانب ليكسوس وأوتيكا.

بُنيت مدينة قادس على جزيرة صغيرة بالقرب من الساحل الغربي، يفصلها عن اليابسة مضيق ضيق شبيه بوميينيوس ميلا بالنهر، وأن ضفتها المواجهة لمياه المحيط قد ارتفعت مكونة في وسطها انحناء ينتهي برأسين، بُنيت على أحدهما مدينة تحمل نفس

(1) دار جدل كبير بين الباحثين والمختصين واختلفت الآراء بشأن تارتسوس هل هي نفسها ترشيش التي ورد ذكرها في عدد من المصادر، والتي من أهمها العهد القديم (التوراة)، ويترجم الاسم بمعنى المنجم أو مكان الصهر أو معمل التكرير، وأخذت شهرتها من غناها بالمعادن والثروات، وباعتبارها أقصى المناطق التي وصلتها السفن الفينيقية للمزيد ينظر (العهد القديم، سفر الملوك الأول 10، 22 / 23؛ سفر أرميا، 9 / 10؛ موسكاتي، 1988، ص 172؛ مازيل، 1998، ص 118-127).

(2) هم آخر موجات هجرة القبائل الهندوأوروبية التي وصلت إلى بلاد اليونان في مطلع الألف الحادي عشر ق.م، استقروا في البيلوبونيسوس، وقضوا على معالم الحضارة الموكينية، تميزوا باستخدام معدن الحديد، وعُرفت غزوتهم بعودة أحفاد البطل الأسطوري هيركليس. للمزيد ينظر: (الناصري، 1976، ص 28)

(3) أوقيانوس (Okieanos): هو الاسم الذي أطلقه الإغريق على المحيط الأطلسي، وفي الأساطير الإغريقية هو إله ابن اورانوس وغايا، ويعد هوميروس أول الكتاب الإغريق الذي عرف وجود الأطلسي لأول مرة من الفينيقيين (حتى، 1957، ص 111).

اسم الجزيرة، أما الرأس الثاني فقد وجد عليه أطلال معبد، ربما يكون المعبد الذي أشار إليه ميلا بأنه مخصص للإله هيركليس المصري (Mela, III,46).

ارتبط اختيار هذا الموقع من جانب الفينيقيين بتحقيق هدفين الأول توفير تحصين طبيعي للمستوطنين، وفي هذا الجانب أشار بلينيوس إلى أن اسم قانس يعني المكان المحصن (Plinius, VI, 120) أو الأرض المحاطة بسور، وبالتالي اتخذها الفينيقيون المدينة الحامية لموطن الثروة داخل شبه جزيرة أيبيريا، أما الهدف الثاني فهو الاستفادة من وجود مرفأين (تسيركين، 1988، ص 69)، يمكن الاستفادة منهما في عمليات التصدير والاستيراد، ومن جانب آخر يتضح حجم العمليات التجارية الكبير، وأهمية مدينة قانس ودورها الاقتصادي الأمر الذي يتطلب إقامة مرفأين.

موقع قانس متميز فهي تقع في نهاية الطريق التجاري في الحوض الغربي للمتوسط الذي يفتح الطريق إلى المحيط الأطلسي؛ حيث كانت قريبة من الموانئ الفينيقية على سواحل شمال إفريقيا وقريبة من المستوطنات المطلة على المحيط الأطلسي خاصة ليكسوس التي يعتبرها كثير من الباحثين المدينة التوأمة لها.

ومن جانب آخر فإن اختيار الفينيقيين لموقع قانس كان وفقاً لمقتضيات الملاحة ومستلزمات الاتصال، نظراً لحصانته، وفي الوقت نفسه يوفر سهولة الاتصال بالسكان والاتجار معهم، وفي ضوء هذه المعايير تم اختيار الموقع لإنشاء مستوطنة بالقرب من مصب نهر بيتيس (Baetis)، وهو الذي عُرف بالنهر الكبير خلال فترة الخلافة الإسلامية بالأندلس.

مما سبق تبين أن المركز التجاري في قانس الواقع في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة أيبيريا كان من أقدم المستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وأن تأسيسه كان لأغراض اقتصادية، بهدف الحصول على خامات النحاس، والفضة، والقصدير، والرصاص، واستبدالها بالمواد المصنعة التي كانت تجلب من شرق المتوسط.

إلى جانب النشاط التجاري مارس الفينيقيون على نطاق ضيق النشاط الفلاحي باعتباره من أهم الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالاستقرار والتجارة بالنسبة للفينيقيين، إلا أن ضيق الأراضي الزراعية في قانس لم يمكنهم من ممارسة نشاط فلاحي واسع كما أشار إلى ذلك سترابون (Strabon, III,5,3)، ويبدو أن سكان المستوطنة كانوا يتحصلون على احتياجاتهم الغذائية من المستوطنات الفينيقية الأخرى المجاورة لهم (تسيركين، 1988، ص 79).

غير أن الفينيقيين اهتموا بنشاط اقتصادي آخر في قانس هو الصناعة، حيث ساعد توفر أنواع جيدة من الأخشاب خاصة من الصنوبر والبلوط على الاهتمام بصناعة السفن، هذا ما شهد به الكتاب الكلاسيكيون؛ فقد أشار ديودورس الصقلي إلى ذلك (Diodorus, V, 16)، وأكد أيضاً بلينيوس (Plinius, III, 76)، وأما سترابون فقد قدم معلومات عن صناعة السفن الفينيقية في قانس؛ حيث يقوم التجار الأغنياء بتجهيز سفن كبيرة الحجم للإبحار بها إلى مناطق بعيدة للتجارة، ويقوم الفقراء باستئجار مراكب صغيرة تحمل اسم الخيول بسبب الأشكال المنحوتة عليها، لاستخدامها في صيد السمك في المنطقة الممتدة إلى حدود نهر ليكسوس (Strabon, III, 3, 4).

وكان لموقع مستوطنة قانس الاستراتيجية وقربها من مناجم التعدين أن تركزت فيها الصناعات التعدينية، وهي من الأنشطة الأساسية في شبه جزيرة أيبيريا فقد أشار ديودورس الصقلي إلى ثروتها بسبب الكميات الوفيرة من الفضة، والقصدير، ومن الذهب أيضاً، والتي يتم نقلها للساحل السوري في مقابل كميات قليلة من البضائع المجلوبة من بلاد الإغريق وآسيا، ومن بعض المناطق الأخرى (Diodorus, V,35,4). ولعل من أهم الصناعات التي تميزت بها مستوطنة قانس هي صناعة الحلبي مثل: الأقرط، والقلائد، والأطواق المستعملة للشعر (العزيفي، 2009، ص 31).

ومن هنا يتبين الدور الاقتصادي المهم لقانس فقد استغلت الثروات البحرية المتوفرة بشكل جيد في سواحلها، كما ارتبط موقعها بتوفير الحماية للمستوطنات الغنية بالمعادن، ومراكز التصنيع المعدني، ونتيجة لذلك فقد حقق الفينيقيون من هذا النشاط التجاري ثروات طائلة ساعدتهم على المضي والانطلاق للتعرف على سواحل أوروبا الغربية والوصول إلى جزر كاستريد (Cassiterides) وكورنوال (Cornowall) البريطانيتين، واكتسبوا الجرأة لاكتشاف سواحل المحيط الأطلسي، وعملوا على تأسيس عدد من المستوطنات على سواحل وجزر البحر المتوسط، وشمال إفريقيا، وفي شبه جزيرة أيبيريا.

ولعل ما يؤكد على أهمية مستوطنة قانس ما ورد في التوراة من أن قانس حلت محل مدينة ترشيش القديمة التي كانت تزود الملك سليمان بواسطة السفن الفينيقية كل ثلاث سنوات بالذهب والفضة والعاج بالإضافة إلى الرصاص والنحاس والقصدير والعسل والشمع (التوراة، سفر الملوك الأول، 10 . 23 / 32).

إلى جانب الصناعات المعدنية عرف الفينيقيون صناعات حرفية أخرى، لعل من أهمها صناعة الخزف الأحمر، الذي دخل في صناعة أواني ارتبطت بالحياة اليومية، وأخرى ارتبطت بالطقوس الدينية والجنائزية (تسيركين، 1988، ص 84-85)، كما أهتم الفينيقيون في شبه جزيرة أيبيريا بصناعة جرار متوسطة الحجم (الامفورات) يتراوح طولها من 50-60 سم وقطرها من 30 - 45 سم، تميزت بأنها بدون عنق، يميل لونها إلى الرمادي ضارب إلى الزرقة من الداخل، والأصفر الباهت من الخارج (تسيركين، 1988، ص 85). هذه الامفورات كانت مخصصة لتعبئة المواد السائلة مثل: زيت الزيتون، والنبيد، وكذلك المنتجات البحرية من الأسماك المجففة، كما برع سكان قادس في الصناعات الزجاجية (اللوحتان رقم 8 ، 9).

النتائج:

ومن خلال ما تم عرضه سابقاً يمكن حصر أهم النتائج في النقاط التالية:

- إن الانتشار الفينيقي الواسع في كافة أرجاء البحر المتوسط يؤكد معرفة البحارة الفينيقيين الواسعة؛ وقدرتهم الكبيرة على ارتياد البحر منذ فترات مبكرة من تاريخهم.
- إن الاستيطان الفينيقي وإن يبدو في ظاهره توسعاً سلمياً تجارياً إلا أنه يعكس توجهات سياسية على مستويات عليا في إطار السعي إلى توسيع مناطق النفوذ، تبين ذلك من خلال الدور المزدوج لتلك المستوطنات وهو دور اقتصادي - عسكري يعكس الأهمية القديمة المتجددة لحوض البحر المتوسط.
- تؤكد من خلال الأدلة الأثرية بأن ارتياد الفينيقيين وتواجدهم في جزر البحر المتوسط كان منذ نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، وبداية الألف الأولى قبل الميلاد.
- كانت التجارة من أهم وأبرز العوامل المحركة للاقتصاد الفينيقي في كافة أرجاء البحر المتوسط.
- ساعد الطابع التجاري الفينيقي على انتشار الكثير من المعتقدات الدينية الفينيقية في مناطق وجزر البحر المتوسط، إضافة لانتشار اللغة والثقافة الفينيقية.
- عرفت التجارة عند الفينيقيين بُعداً واسعاً لم يكن معروفاً عند غيرهم من الشعوب، استطاعوا من خلاله تحقيق قدر كبير من الثروة والازدهار الاقتصادي، فتحكموا في تجارة البحر المتوسط من خلال إنشاء العديد من المستوطنات.
- الاختلاف الواضح بين المصادر الأدبية والمصادر الأثرية حول تاريخ المستوطنات الفينيقية.
- استطاعت المستوطنات الفينيقية في حوض البحر المتوسط أن تحقق العديد من الأهداف خاصة في الجانب الاقتصادي فحققت ثروات طائلة كانت حافزاً في الانتشار والانطلاق إلى ما وراء أعمدة هيركليس.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر المترجمة:

- الكتاب المقدس، كتب العهد القديم، (2011)، ط 2، دار الكتاب المقدس، القاهرة.

ثانياً - المصادر الكلاسيكية الأجنبية:

- Diodorus Siculus, (1952), Bibliotheca historica, VIII, Loeb Classical Library, London.
- Josephus Flavius, (1972) Contre Apion ; Antiquite juives.
- Plinus, (1974) Naturalis Historia, Loeb Classical Library, London.
- Pomponus Mela, (1988), Chorographia, The Latin Library.
- Strabo, (1972) Geography, III, Loeb Classical Library, London.
- Thucydides, (1976), Historiae, Loeb Classical Library, London.
- Velleius Paterculus, (1970) Historiae Romanae, 1,2,3, London.

ثالثاً - المراجع العربية:

- أبوشحمة، محمد على (2015)، المعتقدات الدينية الفينيقية في المدن الثلاث اللبنيّة، مجلة البحوث الأكاديمية.
- بورونية، الشاذلي ؛ الطاهر، محمد (1999)، قرطاج البونية تاريخ حضارة، تونس، مركز النشر الجامعي.
- دوكرية، فرانسوا (1994)، قرطاج الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق.
- ————— (1996)، قرطاج أو امبراطورية البحر، ترجمة عز الدين أحمد عزو، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
- اكصيل، اصطيغان (2007)، تاريخ شمال افريقيا القديم، ترجمة سعود، محمد التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007.
- البركي، مفتاح محمد (2008)، الصراع القرطاجي الإغريقي من القرن السادس حتى منتصف القرن الثالث ق.م، مجلس الثقافة العام، طرابلس.
- الدبس، المطران يوسف (1984)، تاريخ سوريا الدنيوي والديني، ج 1، دار نظير عبود.
- الهذال، حصة تركي (2016)، المراكز والمستوطنات التجارية الفينيقية في غرب البحر المتوسط قبل تأسيس قرطاج، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد 41، سنة 2016، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- الناصري، سيد أحمد (1976)، الإغريق تاريخهم وحضارتهم من حضارة كريت حتى قيام إمبراطورية الإسكندر الأكبر، ط 2، دار النهضة العربية، القاهرة.
- السيد، مها (د - ت)، الآلهة والأساطير اليونانية، الأسكندرية، الحضري للطباعة.
- العزيفي، محمد رضوان (2009)، ليكسوس مستوطنة فينيقية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله.
- الفرجاوي، أحمد (1993)، بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاج، المعهد الوطني للتراث، تونس.
- الصفدي، هشام (1967)، تاريخ الرومان، الجزء الأول، لبنان، دار الفكر الحديث.
- الصغير، محمد (1979)، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، ط 2، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

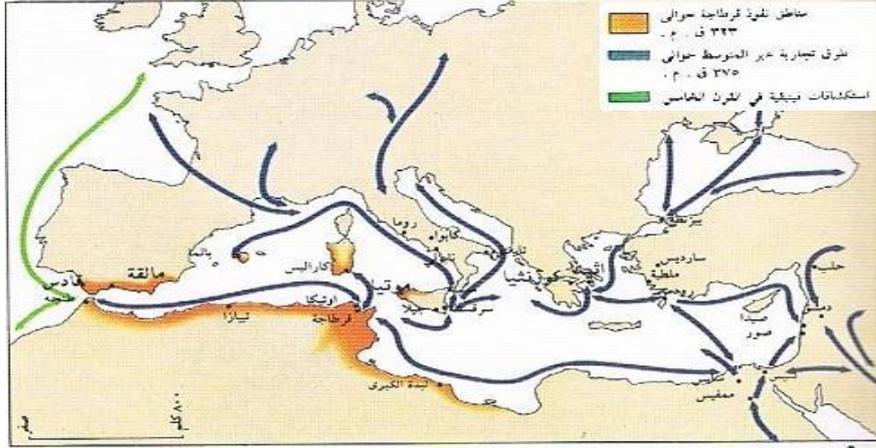
- _____ (2003)، معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
 - الخطيب، محمد (2007)، الحضارة الفينيقية، سوريا، منشورات دار علاء الدين.
 - حتي، فيليب (1957)، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة: جورج حداد، عبد الكريم رافق، ط 3، دار الثقافة، بيروت.
 - كونتو، جورج (1997)، الحضارة الفينيقية، ترجمة، محمد عبد الهادي شعيرة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
 - مازيل، جان (1998) تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، ترجمة ربا الخش، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا.
 - مهران، محمد (1994)، المدن الفينيقية تاريخ لبنان القديم، دار النهضة العربية، بيروت.
 - موسكاتي، سبتيانو (1988)، الحضارة الفينيقية، ترجمة خياط، نهى، الدار العربية للكتاب، بيروت.
 - منصور، خديجة (2002)، الرحلات عبر البحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة، مجلة دراسات إنسانية، المجلد الثاني، العدد الأول.
 - عبودي، هنري (1991)، معجم الحضارات السامية، د - ن، طرابلس، لبنان.
 - عولمي، الربيع (2022)، الرحلات عبر البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي وتأسيس أولى المستوطنات في العصور القديمة، مجلة دراسات تاريخية، المجلد العاشر، العدد الأول.
 - عصفور، محمد أبوالمحسن (1981)، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت.
 - فنطر، محمد حسين (1998)، الفينيقيون بناء المتوسط، منشورات اليف، تونس.
 - _____ (1999)، الحرف والصورة في عالم قرطاج، منشورات اليف، تونس.
 - تسيركين، يولي بركويتش (1988)، الحضارة الفينيقية في اسبانيا، ترجمة يوسف أبي فاضل، جروس برس، بيروت- لبنان.
 - خير الله، شوقي (1992)، قرطاج العروبة الأولى في المغرب، المركز العلمي.
- رابعًا - المراجع الأجنبية:

- Diogo, R. M., (1988), « Les Phéniciennes dans la Paie de Cadix », Dossiers d'ArchéologieK Les Phéniciens à la conquête de la Méditerranée, n 132.
- Gras, M.,(1989), L'univers Phénicien. Ed. ARTHNAUD, Paris.
- Krings, V., (1995), La Civilisation Phénicienne et Punique E.J. Britelan, Koelen.
- Lancel, S., (1992), Carthage, Fayard, Tunisie.
- Marguerite, Y.,(1988), Kition un royaume phénicien a chypre et sa capitale. Dossiers d'ArchéologieK Les Phéniciens à la conquête de la Méditerranée, n° 132.
- Moscati, S., (1971), l'Épopée des Phéniciens, Paris.
- Warmington, B.H., (1960), Carthage, Robert Hal, London.

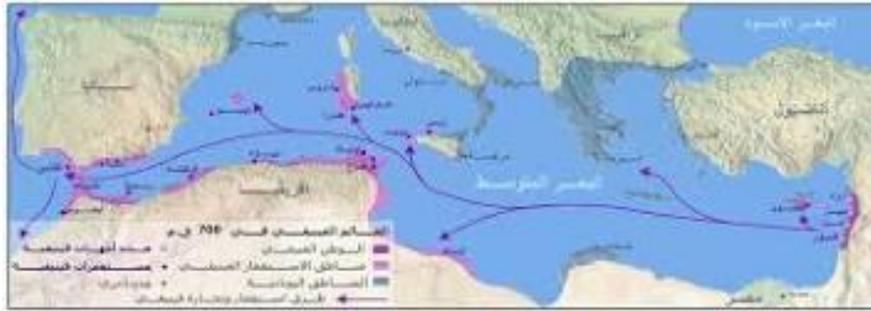
خامسًا - المواقع الإلكترونية:

- <https://babelgeo.com>
- <https://www.google.com>
- <https://www.archinform>

ملحق اللوحات



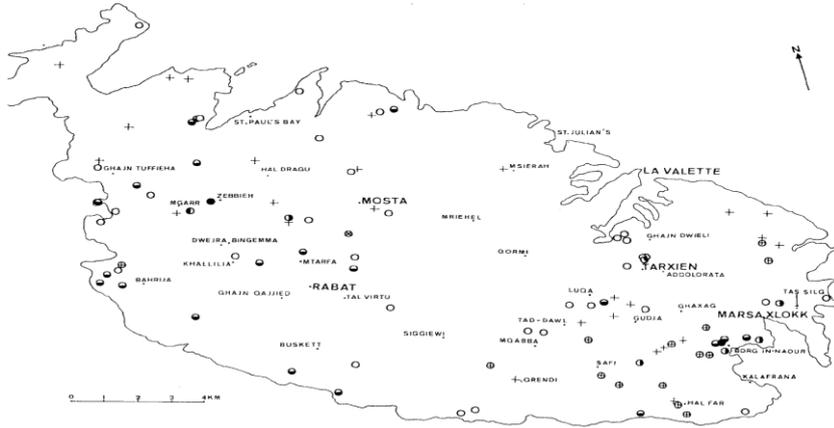
(اللوحة رقم 1) خريطة توضح الطرق التجارية الفينيقية نقلاً عن (https:babelgeo.com)



(اللوحة رقم 2) خريطة تبين الانتشار الفينيقي في حوض البحر المتوسط نقلاً عن (https://www.google.com)

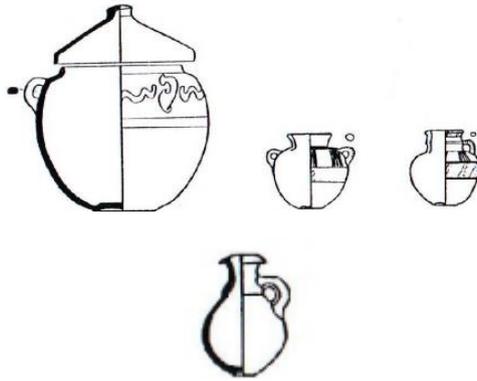


(اللوحة رقم 3) خريطة توضح المستوطنات الفينيقية في قبرص (Moscatti, 1971, p. 153)



(اللوحة رقم 4) خريطة موضح عليها المستوطنات الفينيقية في جزيرة مالطا

نقلًا عن: (Krings, 1995, p. 702)



(اللوحة رقم 5) أواني فخارية من جزيرة مالطا نقلًا عن: (Gras, 1989, p. 93)



(اللوحة رقم 6) خريطة توضح المستوطنات الفينيقية في جزيرة صقلية

نقلًا عن (بورونية؛ الطاهر، 1999، ص 105) بتصريف من الباحث

